مسجد الحظائر ومئذنته دراسة موجزة في تاريخه وعمارته ومئذنته

د. خالد خليل حمودي

المقدمة

اشتهرت بغداد بمساجدها ومأذنها ذات الطراز المتميز في التصميم والشكل والحجم والبناء والزخرفة. ونتيجة للاحتلال المتكرر والغزو الاجبي والكوارث الطبيعية الاخرى فان معظم ابنيتها تعرضت للتدمير والاندثار ولم يبق الا القليل منها شاهدا على فخامتها وعظمتها ومن ذلك المساجد والمآذن.

ومسجد الحظائر العباسي المعروف حاليا بجامع الخفافين وهو واحد من الابنية العباسية القليلة المتبقية في بغداد وتعد مئذنته اقدم المآذن البغدادية حيث شيدت سنة (٥٨٠هـ /١١٨٤م) ومازالت محتفظة بمعظم عناصرها المعمارية وشكلها الاصلي على ان بناية المسجد المذكور جددت عدة مرات اخرها في العصر العثماني الاخير، ويبدو ان البناء الحديث اتبع نفس التخطيط القديم واسلوب عمارة المسجد في العصر العباسي الاخير. ومن هنا جاء اختيار لبناية هذا المسجد ومئذنته القديمة الشامخة الى اليوم كتراث بغدادي اصيل ينبغي توثيقه وتوضيح مميزاته وخصائصه المعمارية والفنية ولغرض لفت الانظار اليه والاهتمام به.

مسجد الحظائر (جامع الخفافين)

الموقع ... والتاريخ

يقع هذا المسجد الجامع على الضفة الشرقية لنهر دجلة الى الجنوب قليلا من المدرسة المستنصرية وجسر الشهداء الحالي، وكان هذا المسجد يسمى في العصر العباسي بمسجد الحظائر لقربه من الحظائر وهي الاماكن التي يتم فيها تجميع وتجفيف التمور(١)، ثم اطلق عليها حديثا جامع الصاغة حيث يقع بجواره سوق لبيع المصوغات الذهبية والفضية، وفي وقت قريب شاعت تسميته لدى اهل بغداد بجامع الخفافين لوجود سوق بجواره مختص ببيع واصلاح الخفاف هي جمع خف وتعني ذلك النوع من الاحذية التي كانت شائعة الاستعمال.

شيد هذا المسجد من قبل السيدة زمرد خاتون زوجة الخليفة العباسي المستضيء بامر الله ووالدة الخلفية الناصر لدين الله المتوفاة سنة(٥٩٩هـ/١٢٠٢م)، وكانت من السيدات المشهورات باعمال الخير وعمارة المدارس والربط والمساجد(٢)، حيث ذكرت المصادر انها قامت ببناء هذا المسجد في حدود سنة(٥٨٠هـ/١١٨٤م) وصرفت عليه الاموال الكثيرة(٣)، والجدير بالذكر ان السيدة زمرد خاتون عندما توفيت في سنة (٥٩٩هـ/١٢٠٢م) دفنت بجانب الكرخ في بناية ضريح له قبة

مخروطة مقرنصة يرجع معظم الباحثين انها هي التي لاتزال قائمة في مقبرة الشيخ معروف الكرخي حاليا.

الوصف العام لبناية المسجد ومئذنته

ان البناية الحالية للمسجد مجددة في فترات لاحقة عدة مرات،واخر تجديد مدون في كتابة تأريخية لاتزال موجودة على المدخل وهي (٩٩٩هـ/ ١٥٩١م) وهذا التاريخ مدون ايضاً على احدى الغرف الملحقة. ويبدو ان هذا التجديد قد شمل المصلى والواجهة الخارجية للمدخل. والجدار الذي فتح فيه المدخل هو الجدار الشمالي الشرقي، على ان مئذنته بقيت محافظة على عمارتها القديمة.

والمسجد الحالي بسيط البناية من حيث التخطيط والعمارة مما يوحي على الاقل محافظته على عناصره التخطيطية الاصلية المعروفة في العصر العباسي الاخير، وهو يشغل مساحة مستطيلة الشكل ابعادها(٣٨×٣٤)متر،ويشغل المصلى مستطيلا منتظما ابعاده من الشمال الى الجنوب (١٦متر)، ومن الشرق الى الغرب (١٢،٥٠متر). والمصلى يقع في الجنوب الشرقي من المساحة الكلية حيث تلتصق بجداره الغربي المئذنة القديمة. وينقسم المصلى الى قسمين بواسطة دعامات تحمل عقودا ضخمة مدببة، والبناء بصورة عامة ضخم الجدران ارتفاع سقفه حاليا نحو (ستة امتار) واسلوب التسقيف فيه يعتمد على استخدام قباب منخفضة صغيرة متعددة تغطي المصلى.

اما مئذنة المسجد فهي اصلية وقديمة بقيت محافظة على شكلها وبنائها وعناصرها منذ تشييدها في سنة(٥٨٠هـ/١١٨٢م)، وتعد اقدم مأذن بغداد، وهي ذات شكل اسطواني ومبنية بالآجر وتبدأ من الاسفل بقاعدة مضلعة مثمنة الشكل، جزء منها مغمور تحت سطح الارض لذلك تظهر غير مرتفعة، وبدن المئذنة اسطواني الشكل مجوف يخترقه سلم لولبي يؤدي الى شرفة الاذان ومدخله في الاسفل على شكل فتحة صغيرة، وشرفة الاذان هي ايضا اسطوانية الشكل يحيطها جدار صغير سطحه الخارجي مزين بزخرفة حصيرية تتكون من قطع آجرية مزججة صغيرة مربعة ملونة، وفوق الشرفة يقوم عنق المئذنة وهو مجوف اسطواني الشكل لكنه اصغر من البدن في حجمه من حيث الطول والقطر، وتنتهي المئذنة في اعلاها بقمة على شكل قبة صغيرة مدببة زين سطحها الخارجي بزخرفة هندسية استخدم في تكوينها الآجر المزجج.

ولعل اهم ماتميزت به هذه المئذنة، استخدام الآجر في بنائها، والشكل الاسطواني، والتناسق بين نسب ابعاد اقسامها وهي القاعدة والبدن والعنق في الحجم والقطر والطول،فضلا عن تميزها بالهدوء والوقار في البناء وبساطة الزخرفة الموجودة فيها، ومما يلاحظ في بناء هذه المئذنة انغمار جزء من قاعدتها تحت سطح الارض حيث يظهر ربع طولها الكلي تقريبا وفي ذلك تقوية للبناء ورسوخه، وكذلك حجم البدن الكبير بالنسبة الى العنق الذي يبدو صغيرا ونحيفا نسبيا، ويبدو ان هذه النسب

اصبحت متبعة في كثير من المآذن البغدادية حتى وقت قريب مما جعل مئذنة مسجد الحظائر تصبح رمزا للمأذن البغدادية.

المميزات العمرانية والفنية المهمة في المئذنة

رغم ان زخارف هذه المئذنة بسيطة وقليلة لكنها ذات اهمية كبيرة بالنسبة لعناصرها واشكالها وتكوينها لكونها توضح لنا ما كان معروفا وسائدا في العصر العباسي الاخير.

فقد ظهرت المقرنصات في اسفل شرفة الاذان، وهي عنصر عماري استخدم في تكوين الشرفة وحملها وابرازها عن البدن ولايجاد مساحة كافية لوقوف المؤذن عليها، وهذه المقرنصات تبدأ في اسفلها اولا بصف من قطع آجرية بنيت بصورة عمودية او رأسية مخالفة للصفوف الافقية المتبعة في بناء المئذنة وبذلك تبدا منطقة المقرنصات بهذا الاطار او الشريط، ويعلو هذا الاطار قوائم تتكون من قطع آجرية بارزة قليلا، وفوق ذلك تقوم ازواج من المثلثات منحنية الرؤوس العليا لكي تحمل كتلة المقرنص حيث يشيد عليها صف من حنايا كبيرة ذات عقد مدبب يرتكز جانب منه على احد المثلثين المتجاورين اللذين في اسفله، والجانب الاخر على احد المثلثين المجاورين المتناظرين مع المثلثين السابقين، والحنية المذكورة تتكون من ثلاثة اضلاع ذات رؤوس مثلثة تتصل مع بعضها في قمة العقد المدبب، ويوجد على جانب كل حنية زوج من حنايا صغيرة مدببة الراس كل واحدة منها منقسمة الى نصفين متساوين، اما ارتفاعها فيتساوى مع ارتفاع الحنية السابقة ولكن عرض كل واحد منها بقدر نصف عرض تلك الحنية، وتستند هاتين الحنيتين الصغيرتين على المثلثين المتجاورين اللذين باسفلها، وتتكرر الحنايا الكبيرة والصغيرة داخل بدن المئذنة، ثم يقوم فوق هذه الحنايا صف اخر يتكون من تعاقب زوج من حنايا واسعة قليلة العمق من حنايا اقل عرضا منها،وجميعها متشابهة الشكل، اذ ان كل واحدة تتكون من راس مثلث ينحني قليل نحو الخارج وتنقسم الى نصفين متناظرين، والملاحظ في هذه المقرنصات انها بنيت بصفوف افقية من قطع الآجر المختلفة الاشكال والاحجام تبعا لطبيعة الاشكال المركبة منها،وكل مقرنص منها احيط باطار من قطع آجرية صغيرة بنيت بصورة عمودية او مائلة على وفق شكل المقرنص.

اما شرفة الآذان الحالية فهي ترتكز على المقرنصات وتبرز قليلا عن البدن وشكلها اسطواني يحيط بها جدار صغير ارتفاعه متر ونصف تقريبا تزينه زخرفة تتكون من قطع آجرية مزججة بنيت بين صفوف القطع الآجرية الاعتيادية بحيث تبدو على هيئة الزخارف المسماة بالحصيرية لكونها تشبه نسيج الحصير، وهذه الزخرفة قوامها قطع آجر مزجج مغروزة في الجدار يظهر مقطعها المربع الذي تبلغ مساحتة ثلث حجم قطعة الآجر المستطيلة الاعتيادية المبنية بصورة افقية، بحيث تتكون من هذه القطع المربعة الصغيرة المزججة اشرطة متدرجة الحافات تؤلف اشكالا هندسية متشابكة.

ومن الزخارف هذه المئذنة تلك التي تزين فتحتها او رأسها بحيث ينتهي العنق بشريط من قطع آجرية باوضاع عمودية وافقية يحدها في اعلاها وفي اسفلها اطار من آجر مزجج، وراس المئذنة يحمل زخرفة قوامها قطع آجرية مزججة ملونة تؤلف اشكالا هندسية ونجمية متداخلة بديعة التكوين تنتهي في قمتها بنجمة صغيرة تحيط بالراس المدبب للمئذنة.

الخلاصة

تعد المساجد والمآذن سمة مميزة للعمارة الاسلامية ولما كانت بغداد حاضرة الخلافة وعاصمة الدولة الاسلامية فانها تميزت بعمارة المساجد والمآذن ذات الطابع الخاص في الطراز العام والتتخطيط والبناء والزخرفة، على ان بغداد تعرضت خلال تاريخها الطويل الى الكثير من الغزوات وفترات الاحتلال و الكوارث الطبيعية لاسيما فياضانات نهر دجلة مما جعلها تفقد معظم معالمها القديمة ولم يبق منها الا القليل ومن ذلك مسجد الحظائر ومئذنته العباسية التي شيدت في سنة(٥٨٠هـ/١١٨٤م) وهي اقدم المآذن القديمة القائمة في بغداد.

ان طراز عمارة هذا المسجد الجامع وتخطيطه يذكرنا بما كان سائدا في العصر العباسي الاخير في عمارة المساجد من العناصر التخطيطية والعمارية والفنية المهمة اذ ان هذا المسجد الحديث اقيم على تخطيط المسجد العباسي ورغم التجديد فهو لازال محتفظا بتلك العناصر، واهم ما تميز به المسجد مئذنته العباسية القديمة التي لازالت محتفظة ببنائها وعمارتها وشكلها وعناصرها الفنية حتى الوقت الحاضر،وتعد النسب المتناسقة بين اقسام هذه المئذنة صفة مميزة لها فضلا عن الشكل الذي طغت عليه البساطة والهدوء مما جعلها تصبح رمزا للمأذن البغدادية، وهكذا اصبحت هذه المئذنة من التراث البغدادي المهم الذي ينبغي توثيقه ودراسته.

الهوامش

١ـ جواد، أ.د.مصطفى: العمارات الاسلامية، مجلة سومر (دائرة الاثار - العراق)، م ٣(١٩٤٧)، جـ ١،ص ٣٨.

٢ـ سبط ابن الجوزي، شمس الدين ابو المظفريوسف بن قزاوغلي التركي، (ت ٦٥٤هـ /١٢٥٦م): مراة الزمان في تاريخ الاعيان،دائرة المعارف العثمانية - حيدر اباد الدكن، الهند، جـ ٨، ص٦٣٧،٦٠٠،٤٩٩،٤٥٩،٤٢٢،٤٥١، ابن الساعي، علي بن انجب بن عثمان، (ت ٦٧٤هـ/١٢٧٥م) :الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون السير، تحقيق د.مصطفى اجواد،المطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد،١٩٣٤، جـ ٩،ص ٨٨ـ٢٤٨،١٧٧،٨٩.ابن الاثير،عز الدين ابو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري(٦٣٠هـ/ ١٢٣٣ م):الكامل في التاريخ، ليدن،١٨٧٠،حوادث سنة ٥٩٩هجرية.ابن تغري بردي،يوسف ابو المحاسن جمال الدين،(ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م):النجوم الزاهرة،دار الكتب المصرية،القاهرة، ١٩٣٦، جـ ٢،ص١٨٢.

٣ـ الايوبي،محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه(ت٦١٧هـ/١٢٢٠م):مضمار الحقائق وسر الاخلائق، دار الهنا للطباعة،القاهرة،ص ١٧٨-١٧٩.